بسم الله الرحمن الرحيم

**خطبة صلاة الجمعة للشيخ الدكتور محمد شريف الصواف**

**ويكشف السوء**

الحمد لله، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، الحمد لله الذي اصطفانا للإيمان، الحمد لله الذي خصنا بالإسلام، الحمد لله الذي جعلنا أمة القرآن، الحمد لله الذي جمعنا في بيت من بيوته على طاعة من أحب الطاعات إليه، في ساعة من أحب الساعات إليه، جمعنا لنذكره ونشكره، ولنكون في ساعتنا هذه من أهل مغفرته وأهل رحمته، نسأل الله تعالى أن يجعلنا في ذلك كله من المخلصين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا وحبيبنا محمداً عبد الله ورسوله، خير نبي اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين.

وبعد أيها الأحبة: يقول الله تعالى في آية من كتابه الكريم، وهو ينبهنا إلى معنى من معاني العبودية، والعبد في كل لحظة وفي كل حركة وفي كل خاطرة من خواطره ينبغي أن لا ينفك عن مراقبة عبوديته لله تعالى وإخلاصه في العبودية لله وحده، يقول الله تعالى في كتابه الكريم: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُون [النمل: 62] أمن يجيب دعاء المضطر، والاضطرار من أعظم حالات العبودية وأرقاها، أن تكون في محنة، وأن تكون في كرب، وأن يكون لديك اليقين بأن هذا الكرب وأن هذه المحنة لا يكشفها إلا لله، وأنه ما من أحد في السماء ولا في الأرض ينبغي أن تلجأ إليه وأن تخلص بالتجائك إليه إلا الله، هذا الاضطرار هو أعظم درجات الإخلاص بالعبودية لله تعالى، وأنت في لحظة اضطراراك هذه في أرقى ما يمكن أن تكون من عبوديتك، أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ لا أحد سوى الله تعالى، ويكشف السوء، يستجيب الله تعالى لهذا المضطر الملتجئ المخلص بالتجائه إلى الله، يستجيب الله له ويكشف السوء عنه.

أيها الأحبة: في صور كثيرة من صور فهم هذه الآية الكريمة نقف عند هذا المشهد، عمران بن الحصين صحابي جليل من أكابر أصحاب رسول الله ، وكان والده الحصين مشركاً، وكان من سادات قومه، فجاء به عمران إلى النبي ، فقال له النبي : كم من إله تعبد أيها الحصين؟ قال: ستة في الأرض وواحد في السماء -أعبد ستة في الأرض وأعبد واحداً في السماء- انظروا إلى حكمة النبي في استخراج فطرة التوحيد من المشركين، فالتوحيد فطرة، وإخلاص العبودية لله تعالى فطرة، ولكن جهل الجهلاء وتزييف النفس البشرية تغطي هذه الفطرة، فقال له النبي : فإذا أصابك السوء أو كنت في البحر وخشيت أن تهلك، أو أصاب مالك ضر فمن تدعو؟ فقال: أدعو الذي في السماء، -هذا إخلاص العبودية لله تعالى عند الاضطرار- قال: من تدعو؟ أدعو الذي في السماء، فقال له النبي : أفيحسن أن تدعو الذي في السماء فيستجيب لك ويفرج عنك كربك، ثم تشرك غيره في عبادته.

هذا المشهد من المشاهد العظيمة في حكمة الدعوة، من المشاهد العظيمة في فهم فطرة التوحيد لله سبحانه وتعالى، الذي يعنينا ونحن اليوم ممن هدينا للتوحيد أن نعلم أنه لا بد أن نمتحن، ولا بد من شدة تخصنا أو تعمنا، لا بد من شدة وضائقة وبلاء ينزل بك وحدك من دون الناس، ويشتد عليك وحدك من دون الناس، ولا بد من صورة ثانية هي صورة البلاء وصورة الشدة التي تعم أهل بلدتك ومجتمعك، وفي كلا الحالتين -في حالة الاضطرار هذه- لا بد من أن تلجأ لله سبحانه وتعالى، ولكن ممّا يُعجل بالفرج الخاص عنك أو عن الأمة أن تتوسل إلى الله تعالى باضطرارك بعمل من الأعمال التي تظن أنها تنجيك عند الله تعالى، ونحن جميعاً في كرب، نحن جميعاً في بلاء، بلاء خاص بكل واحد فينا في مسألة من المسائل التي أهمته، وبلاء عام نزل بالأمة، نسأل الله تعالى أن يُفرج عنا جميعاً، وأن يَجعل لنا عاقبة الخير والرشاد.

روى البخاري ومسلم حديثاً صحيحاً اشتهر بيننا وهو الحديث النفر الثلاثة الذي أخبرنا النبي أنهم أووا إلى الغار يريدون أن يَحتموا بالغار من المطر، ثم إن المطر اشتد وتساقطت صخرة عظيمة فأغلقت هذا الباب، تعالوا أيها الإخوة نتخيل أن كل واحد في حالة كربه اليوم، أن كل واحد منا في حال شدته اليوم، هو في حالة تشبه هذه الحالة، أنت اليوم في شدتك وكربك محبوس في غار، وهذا الغار قد أغلق بهذه الصخرة الكبيرة التي لا قِبل لك على أن تُزحزحها فتخرج من الغار، ولا تستطيع أن تتواصل مع أحد وأن تستعين بأحد لتخرج من هذا الغار، في تلك الصورة المدهشة التي ينقلها النبي يقول إن الكرب الذي نزل بهؤلاء كان السبب الفرج فيه أن هؤلاء الثلاثة التجؤوا إلى الله تعالى التجاء المضطر أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ [النمل: 62] ثم إنهم التجؤوا إليه متوسلين بعمل صالح، ولكن العجيب الذي يَحتاج منا إلى تأمل أن هذا العمل الصالح لَم يَكن أنهم قالوا: يا رب أنك تعلم أني كنت أصلي على النبي كذا، ما كان يا رب اللهم إنك تعلم أني كنت أقرأ القرآن واختم القرآن بثلاثة أيام، ما قال: يا رب أني كنت أقوم الليل وكنت أصلي في اليل كذا ركعة وركعة، وهذه الأشياء التي ذكرتها كلها من الأعمال الصالحة العظيمة التي يَنبغي أن لا نُقصر فيها، ولكن كأن النبي عندما تريد أن تتوسل إلى الله تعالى وتطلب من الله الفرج بحاجة إلى عمل استثنائي، إذا المقصود منا اليوم أن يفتش كل واحد منا على عمل استثنائي، وأن يطرق باب الله سبحانه وتعالى ويطلب الفرج من خلال هذا العمل الاستثنائي، وإذا تأملنا في أعمال هؤلاء الثلاثة نجد أنها كلها أعمال استثنائية، واختصر الكلام حول هذا الحديث لأنه معلوم لديكم:

الأول قال: يا رب إنك تعلم أنه كانت لي شويهات -يعني جمع شاة- وكانت تحلب وتدر الحليب، وأنني كنت لا أبدأ أحداً بالحليب إلا والديَّ، لا أسقي أحداً من هذا الحليب إلا حتى يَشرب والدي ووالدتي من شدة البر ومن استثنائية البر، وإن هذه الشويهات تأخرت مرة، فجاء بالحليب ورأيت أن ووالدي ووالدتي قد ناما، فمات أحببت أن أزعجهما، ولي أطفال يبكون ويريدون أن يشربوا الحليب، فما سقيتهم شيئاً من الحليب، وما أزعجت والديَّ حتى استيقظا، فجعلت الحليب أولاً سُقيا لوالديَّ، ثم سقيتُ أبنائي، هذا برٌ لكنه برٌ استثنائي، ليس المقصود فقط هذا المشهد -أيها الإخوة الكرام- وإنما المقصود أن هذا الإنسان لا شك لديه مشاهد أخرى كثيرة في حالة البر الاستثنائي.

الثاني قال: اللهم إنك كنت تعلم أنه كان لدي ابنة عم، كنت أحبها وكنت أراودها عن نفسها، وكانت تتمنع تقوى لله سبحانه وتعالى، ثم إن سنة قد أصابتهم -أصابهم فقر شديد ومجاعة- فجاءت تعرض علي نفسها مقابل شيء من المال، فلما تمكنتُ منها تمكن الرجل من المرأة قالت: اتق الله، فتركتها وتركت لها المال، فإن كنت تعلم أني قد تركتها لله ففرج عنا، هذا العمل استثنائي أيها الإخوة.

الثالث -وهذا عمل استثنائي في أخلاق التعامل المالي، اليوم الناس يعبدون الله تعالى في المساجد، سجوداً وقياماً وقراءةً للقرآن وذكراً لله تعالى، وينسون عبوديتهم لله تعالى في البيع والشراء والمتاجر والدين والغش والربا- الثالث قال: يا رب إنك تعلم أنه كان لدي أجراء يعملون، ولما أتيت لأوديَّ لهم الأجر لأحدهم -القصة طويلة- رفض أن يستلم هذا الأجر، فإني أخذت هذا المال الذي هو أجر هذا الرجل، فجعلت أُنَمِّيه واستثمره حتى عاد عليه بخير، واشتريت فيه غنم واشتريت فيه بقر، ثم جاء إلي هذا الرجل بعد أيام طويلة أصابه فقر شديد، فقال لي هل تذكرني أنا فلان الذي كنت أعمل لديك عندك في يوم كذا ورفضت أن آخذ أجري، هل من الممكن أن تعطيني أجري؟ فقلت له: هل ترى هذه الأبقار والأغنام، اذهب فذاك مالك الذي لك عندي، نميته لك ثمرته لك، والله هذا العمل أيها الأحبة عمل استثنائي.

اليوم تعالوا نقف ونستشعر أولاً أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد بهذا البلاء العام في هذه الشدة العامة التي تطحن الناس طحناً، إذا أراد الله تعالى أن يجعل الفرج خاصاً لك من دون الناس فهو قادر، والدليل على ذلك حديث عن أبي هريرة روي في الصحيح، هذا الحديث أن رجلاً من أهل الأمم السابقة كان يَسير في الطريق، وكان الزمن والوقت زمن جفاف وزمن قحط، فرأى غيمة مُحملة بالمطر -هذا الحديث مروي في البخاري ومسلم أيها الأحبة عن أبي هريرة - غيمة محملة في المطر تسير وسمع مناد ينادي اذهبي فأمطري على حديقة فلان- من دون كل الناس، القحط يعم الناس وهذه الغيمة المحملة بالمطر تسير لتمطر على حديقة فلان- فسار هذا الرجل عن المدينة وسأل: من فلان؟ دلوني على هذا الرجل، قال: فدلوه فذهب فوجد رجلاً يعمل في حديقته ويهيأ، فجعل ينزل المطر على حديقته وهو يهيأ السواقي ويوسع حول الأشجار ليستفيدوا من هذا المطر، فقال له: أنت فلان؟ -بالاسم الذي سمعه- قال: نعم، قال: أخبرني ما شأنك؟ قال: أنت ما شأنك بي -أنت ما تريد مني، لماذا تسألني عن شأني- قال: كنت مسافراً وسمعت منادياً يُنادي الغيمة: اذهبي فأمطري في حديقة فلان، فأنت ما شأنك حتى ينادي المنادي أن الغيمة لتمطر في حديقتك من دون الناس؟ فقال له: أنا كل ما يخرج من ثمر وخير من هذه الحديقة أقسمه ثلاثة أقسام: قسم أتصدق به، والثلث الثاني أنفق به على نفسي وعلى عيالي، والثلث الثالث أعود به إلى هذه الحديقة، تثمير وتنمية، إذاً هذه قاعدة تعاملي مع الله تعالى، من أجل ذلك جعل الله تعالى فرجاً خاصاً لي، مع أن الأزمة عامة، مع أن المشكلة عامة.

اليوم أنت فيما ابتليت به ماذا يمكن أن تقول لله تعالى وأنت تسأل سؤال المضطر أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوء [النمل: 62] ماذا تقول لربك لو أنك خلوت بالله وأنت تسأل الله الفرج؟ وأنا أقترح الآن وكل واحد أدرى بما يمكن أن يقوم به من عمل استثنائي في مقامه:

يمكن أن تقول: اللهم إنك تعلم أني قد عملت في العمل الحكومي الفلاني في المكان الفلاني عملت أربعين سنة عملت ثلاثين سنة، وإنك تعلم يا رب أنه قد عرضت علي ما عرضت من رشاوى ومن تزوير الحقوق ومن الاعتداء على الناس ومن المكاسب المحرمة، ولكني يا رب خلال هذه السنوات الطويلة كنت أراقب نظرك لي، فكنت أتقي الله سبحانه وتعالى حتى خرجت بعد كل هذه السنوات الطويلة ولم أكتسب مالاً حراماً ولم أتعدى على أحد بمظلمة، هذا عمل استثنائي.

ربما يمكن أن تقول: اللهم إنك تعلم اني كنت صاحب معمل، أني كنت صاحب صناعة، ثم جاءت الأزمة بما فيها من شدة وكرب، وبدأ الناس جميعاً يُسرحون العمال، وبدأ الناس جميعاً يُلقون بالعمال في الطريق، ولا يلقون بالاً كيف سيعيشون، وكيف يأكلون، ولكني يا رب قلت: هؤلاء العمال شركاء لي في الرزق الذي سترزقني إياه، فما سرحت عاملاً وما أرسلت عاملاً على بيته ليجلس ولا يدري من أين سيطعم أولاده، وإنما جعلت الرزق الذي سيأتي وإن كان قليلاً جعلته رزقاً لي وللعاملين معي.

هاتان الصورتان -أيها الأحبة- هما صورتان حقيقيتان لناس يجلسون الآن معكم، وقد ذكرا لي هما هذه الصورة، الشاهد من الكلام أنت في كرب، هذا الكرب خاص بك، والأمة في كرب يصيبك من الكرب ما يصيبك، لا تغفل عن أن تسأل الله سبحانه وتعالى سؤال المضطر أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوء [النمل: 62] ثم اجعل مع اضطرارك في سؤالك لله سبحانه وتعالى سبباً تتوسل به إلى مولاك، وتذكر أن هذا السبب سيكون سبباً استثنائياً كحال الأسباب التي ذكرناها، أنت صاحب منشاة، صاحب معمل، صاحب مؤسسة تعليمية، صاحب متجر، يا تُرى هل شاركت الله تعالى في رزقك، قلت: والله ثلث الأرباح لله تعالى كما قال صاحب الحديقة، أو ربما الثلث كثير لكن المهم أن تجعل لله تعالى معك شركة في أرباحك، تجعل ذلك في الأرحام والفقراء، وفي من يحتاج من أصحاب المجتمع الذين أصيبوا؟

أيها الأحبة: نسأل الله تعالى أن يفرج عنا في خاصة أنفسنا، وأن يُفرج عنا في عامة ما أصاب بلادنا وما أصاب بلاد المسلمين، ولكن تذكروا بأن هذا الفرج له أسباب، وتذكروا أن هذه الأسباب يجب أن تكون أسباب استثنائية وتذكروا قصة صاحب الحديقة التي رويت في الصحيح، وقصة أصحاب الغار التي رويت أيضاً في الصحيح.

نسأل الله تعالى أن يُلهمنا فعل الخيرات، نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن ثبتوا في فعل الخيرات، ونسأل الله تعالى أن يجعل لنا عاقبة الخير والفرج، إنه على كل شيء قدير أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوء اللهم إنا نسألك سؤال المضطرين، اللهم فاكشف عنا السوء يا مولانا، واستعملنا صالحين، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه فيا فوز المستغفرين.

بتصرف